

ابن البيطار

قصة عالم نبات مسلم ، عاش منذ
ثمانمائة عام . غرس النباتات النادرة في
الحدائق ، وساح في أرجاء الأندلس والمغرب
الكبير وآسيا الصغرى واليونان والشام لمعرفة
عالم النبات . ووصف ألفاً وأربعمائة نبات .
وتحدث عن العلاج بها . ومن بينها ثلاثمائة
نبات من اكتشافه . وصار رئيساً للصيادلة
بمصر والشام . وألف كتابين في
العلاجات النباتية والمعدنية والحيوانية .
وصارت كتبه من بعده مرجعاً للصيادلة
والأطباء وعلماء النبات . إنها قصة تثير
الفخر ، يقرأها الصغار والكبار .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

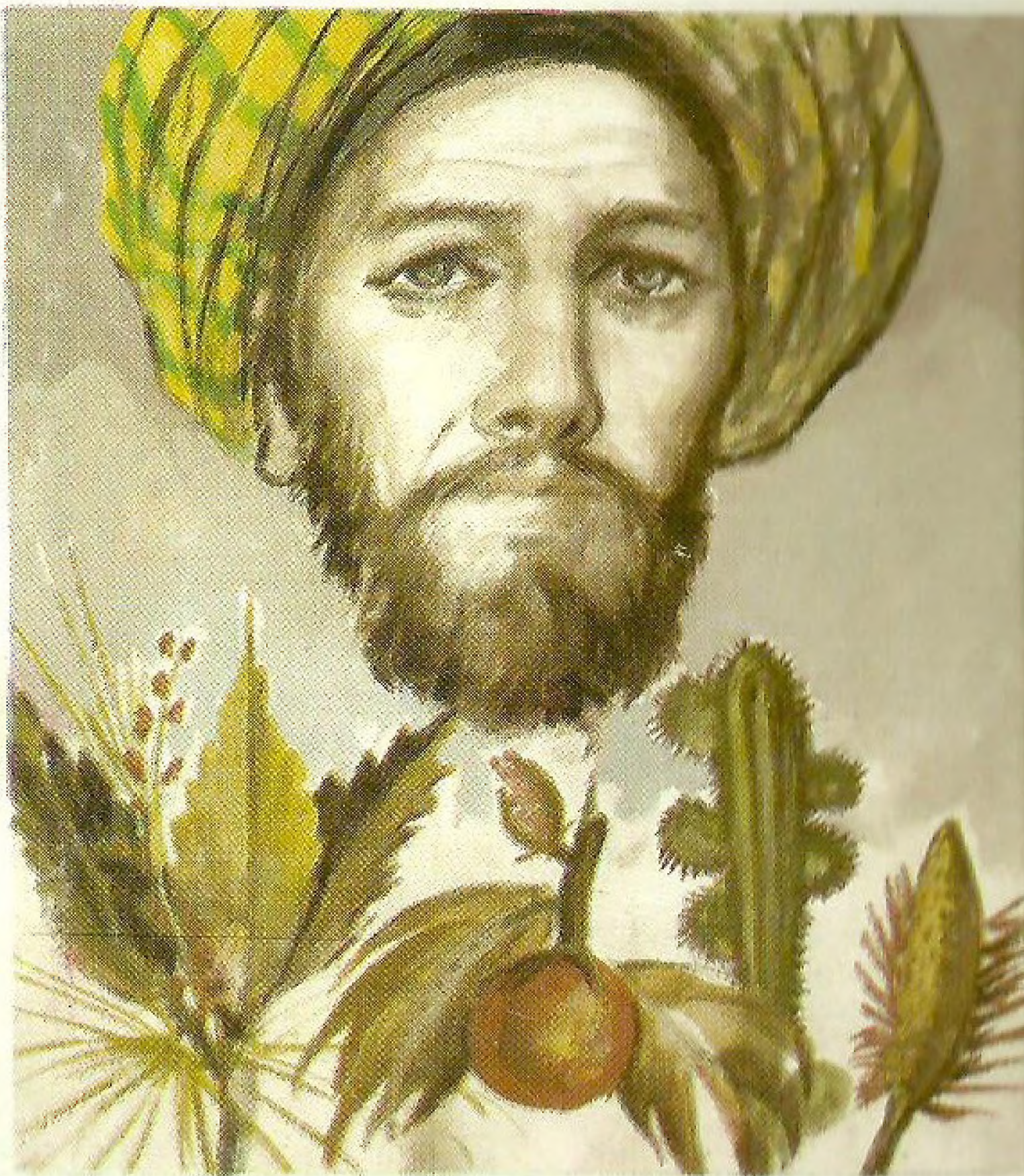
مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

علماء
العرب



ابن البيطار

عالم النباتات



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

الأهرام

مكتبة دار الفكر

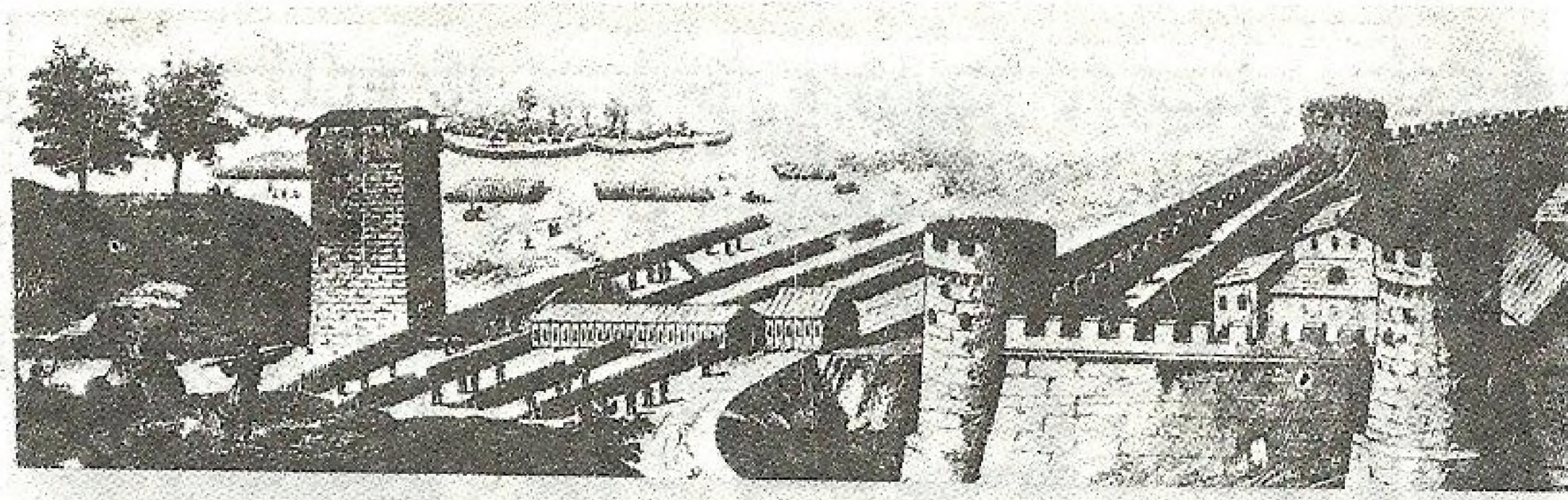
علماء
العرب

ابن البيطار

عالم النبات



سليمان فياض



مدينة . . على البحر

قبل سبعمائة عام ، كانت مدينة « مَلَقَا » مدينةً عربيةً جميلةً ، تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي بالأندلس (إسبانيا الآن) . كانت مدينةً عامرةً بالبساتين ، يمر بها النهر ، تضيئ في النهار بأصوات الحرفيين الذين يصنعون الصابون ، ويستخلصون زيت الزيتون ، وبأصوات البحارة في مينائها الذي تفد إليه السفن وتذهب . وفي الليل ، بالقرب من جبل الفتح ، كانت « مَلَقَا » تسمّر وتنام ، وقد أغلقت أبواب أسوارها الحصينة ، على أصوات الموسيقى ، وأغاني الموشحات الأندلسية ، وحكايات الحروب بين العرب والفرنجة ، وقصص الفتن والثورات ، في عهود ملوك الطوائف ، وسلاطين المرابطين ، والموحدين .

وكانت فصول العام تمر على « مَلَقَا » بسماوات راقية ،

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة

تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تليكس ٩٢٠٠١ يوان

وَسَمَاوَاتٍ مُّلبَّدةٍ بالسَّحَبِ غزيرةٍ الأمطار ، وسَمَاوَاتٍ تَعكِسُ
بِياضَ الثلوج على قِمَمِ جَبَلِ الفُتُوحِ وَسُفُوحِهِ ، وفوقَ سُقُوفِ
البيوت ، وَهَامَاتِ الأشجار .

وعندَ الفجر ، في كُلِّ الفصول ، كانتْ تَصْدَحُ في ميناءِ
« مَلَقَا » أصواتُ البواخرِ ، والسُّفُنِ الصغيرة ، الداخلةِ إلى
الميناءِ والخارجةِ منه ، ترقبُها عيونُ الحراسِ في قلعةِ
« مَلَقَا » المهيبة ، ومن وراءِ فتحاتِ الأسوارِ الشامخة .

وفي مدينةِ « مَلَقَا » كان يعيشُ « أحمدُ البيطار » ، مع
زوجتهِ : « نُعمى » وابنه : « عبد الله » . كانت حرفةُ أحمد
هي البيطرة (علاج الحيوانات) . وأحياناً ، كان يقوم بتركيبِ
الحداوى لحوافِرِ خيلِ الفرسان . وكان أحمد قد بلغ من
العمرِ خمساً وثلاثين سنة .

وذاتَ صباح ، كان أحمدُ يجلسُ عند سورِ بيته ، وقد
أوقَدَ ناراً ، وراح يصنعُ ثقباً للمسامير في حدودِ تتقدُّ
كالجمر . وبين حينٍ وآخر يمسحُ عرقَ جبينه في كُمِّه .
وفجأةً ، أقبلَ نحوهَ فارسانِ من الفرنجة ، خارجين عليه من
غابةٍ قريبة . وتوقفا عنده بفرسيهما ، وقال له أحدهما ، وهو
ينزلُ عن فرسه :

- أنت يا نَعَال .



فَأَلْقَى أَحْمَدُ بِالْحُدُوءِ ، وَانْتَفَضَ وَاقِفًا ، وَقَالَ فِي غَضَبٍ :

- لَسْتُ نَعَالًا . أَنَا بَيْطَارٌ ، أَعَالِجُ . . الحيوانات !! !

فتضاحك الفارسان ، وقال له الآخر :

- صِنَاعَتُكَ هِيَ الحيواناتِ فِي الْحَالِينَ .

فقال لهما أحمدٌ بسخرية :

- نَعَمْ . حِرْفَتِي هِيَ . . الحيوانات !! ! ماذا تُرِيدَانِ ؟

نَعَالًا ، أَمْ . . عِلَاجًا ؟

فقال أحدُ الفارسيْن :

- نُرِيدُ حَدَاوِي لِفَرَسَيْنَا .

وعبرَ أحمدُ بابَ بَيْتِهِ إِلَى حَوْشِهِ . وَكَانَتْ « نُعْمَى »

وَاقِفَةً بِجَانِبِ سَلَّةٍ مِنْ خُوصِ النِّخِيلِ ، مَلِيئَةٍ بِالْحَدَاوِي

وَالْمَسَامِيرِ . وَانْتَقَى أَحْمَدُ ثَمَانِي حَدَاوِي ، وَمَسَامِيرَ كَبِيرَةً .

وَقَالَتْ نُعْمَى لَزَوْجِهَا مُحَذَّرَةً :

- احْتَرِسْ مِنْ هَذَيْنِ الْفَارِسَيْنِ . فَهُمَا فِيمَا يَبْدُو مِنْ

أَشْرَارِ الْفَرَنْجَةِ ، الَّذِينَ تَسَلَّلُوا إِلَى الْغَابَةِ ، فِي غَفْلَةٍ مِنْ

فُرْسَانِنَا الْعَرَبِ .

فقال لها أحمدٌ بدهاء :

- لَا تَخَافِي . سَأَدُقُّ لِفَرَسَيْهِمَا حَدَاوِي بِمَسَامِيرَ كَبِيرَةٍ ،

تُحَدِّثُ لِهَمَّا آلَمًا فِي السَّيْرِ ، فَلَا يَقْدِرُ الْفَرَسَانِ عَلَى الْعَدُوِّ
وَالْهَرَبِ فِي الْغَابَةِ ، حِينَ يَلْمَحُهُمَا فُرْسَانُنَا الْعَرَبِ .

وَعَادَ أَحْمَدُ بِالْحَدَاوِي وَالْمَسَامِيرِ . وَأَخَذَ يَنْزِعَ

الْحَدَاوِي الْمَتَاكِلَةَ مِنْ حَوَافِرِ الْفَرَسَيْنِ ، وَيَدُقُّ الْحَدَاوِي

الْجَدِيدَةَ مَكَانَهَا بِمَسَامِيرَ كَبِيرَةٍ . وَكَانَ الْفَارِسَانِ قَدْ جَلَسَا

يَسْتَدْفِئَانِ حَوْلَ النَّارِ ، وَيَشْرَبَانِ خَمْرًا مِنْ زُجَاجَةٍ . بَيْنَمَا كَانَ

« عَبْدُ اللَّهِ » وَاقِفًا عِنْدَ مُنْعَطَفِ السُّورِ يَرْقُبُ أَبَاهُ ، وَالْفَارِسَيْنِ ،

وَالْفَرَسَيْنِ . وَرَأَاهُ أَحَدُ الْفَارِسَيْنِ فَصَاحَ بِهِ :

- أَنْتَ يَا غُلَامَ . تَعَالِ .

فَتَرَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَاخْتَفَى وَرَاءَ زَاوِيَةِ السُّورِ . فَهَمَّ

الْفَارِسُ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْفَارِسُ الْآخَرُ :

- دَعُكَ مِنْهُ . إِنَّهُ وَلَا بُدَّ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَيْتَامِ الَّذِينَ

قَتَلْنَا آبَاءَهُمْ .

وَأَغْرَقَ الْإِثْنَانِ فِي ضَحِكٍ قَبِيحٍ .

لَا تَشْرَبْ يَا أَبِي

كَانَ أَحْمَدُ قَدْ أَنْتَهَى مِنْ عَمَلِهِ ، وَوَقَفَ قَلِقًا عَلَى وَلَدِهِ

« عَبْدُ اللَّهِ » يَخْشَى أَنْ يِنَالَهُ أَذَى مِنْ أَحَدِ الْفَارِسَيْنِ ، وَنَهَضَ

الفارسان واقفين ، واتجها نحو أحمد ، وقدم له أحدهما
زُجاجة الخمر قائلاً :

- خذ واشرب . لم يبق في الزجاجة سوى قدح
صغير .

فقال أحمد بحزم :

- لا . إنها خمر . قليلها وكثيرها حرام . حرّمها الله من

فوق سبع سماوات .

فقال له أحد الفارسين بغلظة :

- إذا لم تشرب حرّمناك من أجرك .

فقال أحمد ناهراً :

- لا أريد منكما أجراً . اركبا فرسيكما واذهبا .

فصاح الفارس الآخر غاضباً :

- لن تقهرنا أنت وقومك ، ستشرب ، وإلا قتلناك .

وأمسك أحمد بالزجاجة ، وقد خاف على نفسه من

القتل ، وراحت يده ترتعد بتردد ، والفارسان ينظران إليه .

وفجأة ، اندفع عبد الله نحو أبيه أحمد ، وهو يصيح :

- أبي أحمد . أبي أحمد . لا تشرب يا أبي .

وضرب عبد الله الزجاجة بيده ، فوقعت من يده أبيه على

الأرض ، وانسكب ما بها . وجرى عبد الله مبتعداً اختفى في

قلب الغابة . وفي الحال ، وثب الفارسان على فرسيهما ،
وعدوا بالفارسين وراءه ، واختفيا في قلب الغابة . ودب
الخوف في قلب أحمد على مصير ولده عبد الله ، وقبل أن
يجري وراء الفارسين ، إذا به يحسّ بيد تجذب ثوبه ،
وبصوت يقول له :

- أبي .

والتفت أحمد فرأى ولده عبد الله ، فجثا بجانبه ،

وهمس بفرح :

- الحمد لله . كيف خدعتكما ، وعدت إلي .

فقال عبد الله وهو يضحك :

- دخلت الغابة ، ثم خرجت منها ، ودّرت حول

البيت ، وعدت إليك ، وتركت هذين الفارسين يبحثان عني

في الغابة .

وسمع الاثنان أصوات عدو الخيل في الغابة ،

وأصوات صليل السيوف ، ثم سمعا صوتي الفارسين

يصرخان فرعاً ، واحداً بعد آخر ، ثم . . ساد الصمت ،

فقال أحمد لعبد الله :

- لقد لحق فرساننا بالفارسين وقتلاهما . عاقت هربيهما

مساميري الكبيرة يا عبد الله .

طاب صباحك يا صاحبي

كان عبدُ الله قد بَلَغَ من العُمرِ عَشْرَ سنواتٍ . وكان يَعْرِفُ أَسْرَارَ حِرْفَةِ البَيْطَرَةِ ، لكنه لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ العَمَلَ . كَانَ يُؤَثِّرُ ، في كُلِّ نهارٍ ، التجوُّلُ في الغابةِ حَوْلَ « مَلَقَا » والسيرَ على شاطئِ البحرِ ، والنهرِ . وَيُحِبُّ الأشجارَ والزُهُورَ والطيورَ . وكان قد نَامَ في الليلِ ، وأبواه يَنْظُرَانِ إليه بَحْنَانٍ ، وأخذَا يتحدَّثَانِ فيما آلتَ إليه حالُ الأندلسِ في عهدِ مُلُوكِ الطوائِفِ (أمراءِ الدُّوَيَّلاتِ) ، ثم في عهدِ المرابطين الذين قَضَوْا على دُوَيَّلاتِ الطوائِفِ ، وهَزَمُوا الفِرَنْجَةَ في مَوْقِعَةِ « الزَّلَّاقَةِ » ، ثم في عهدِ الموحِّدين الذين قَضَوْا على دولةِ المرابطين ، وهَزَمُوا الفِرَنْجَةَ في مَوْقِعَةِ « الأَرَكِ » . وقال أحمدُ لِنُعْمَى بمرارةٍ :

- هل استطاعَ الموحِّدون أن يَمْنَحُوا أَهْلَ الأندلسِ شعوراً بالأمنِ ؟ هَاهُمْ أَغْوَانُ الفِرَنْجَةِ مِنَ الإِسْبَانِ يَجُوسُونَ في الأندلسِ عَصَابَاتٍ إِثْرَ عَصَابَاتٍ ، يَقطَعُونَ الطريقَ ، وَيُخِيفُونَ النَّاسَ ، وَيَنْهَبُونَ الأَقْوَاتِ .

وتَنَهَّدَتْ نُعْمَى ، وقالت :

- لو لَمْ يَكُنْ صلاحُ الدينِ الأيوبيِّ في مصرَ ، مشغولاً

بِحَرْوُبِهِ مع الصَّلِيبِيِّينَ في الشامِ ، لَمَدَّ إِلَيْنَا يَدَهُ لِنَجِدَةَ بلادِ الأندلسِ .

فقال لها أحمدُ بحزنٍ :

- المأساةُ الكبرى مأسأتُنَا يا نُعْمَى . فمدينتُنَا « مَلَقَا » على البحرِ في جنوبِ الأندلسِ ، والفِرَنْجَةُ دَائِمُوا الإِغَارَةَ عَلَيْنَا بِسُفْنِهِمْ . وقد صارتِ الأندلسُ وفي كُلِّ مَدِينَةٍ حاكمٌ ، وكلُّ حاكمٍ يديرُ ظَهْرَهُ لِلآخِرِ ، وتوشِكُ الأندلسُ أن تَضِيعَ كُلُّهَا من يَدِ المسلمينِ .

ونظر أحمدُ إلى ولده عبدِ الله ، وقد رَقَدَ هَانِئاً في نومِهِ ، وَهَمَسَ بِقَلْقٍ :

- رَاقِبِي عبدَ الله يا نُعْمَى مُنْذُ اليَوْمِ ، فَإِنِّي خَائِفٌ عَلَيْهِ من شُرُورِ الفِرَنْجَةِ .

في الصباحِ ، سارَعَ عبدُ الله مع شروقِ الشمسِ ، يَغَادِرُ بَيْتَ أَهْلِهِ في مَلَقَا ، وفي يَدِهِ قَصَبَةٌ صِيدٍ . وَجَلَسَ على شاطئِ النهرِ يَصِيدُ سَمَكاً . وعند الظهرِ ، حملَ ما صَادَهُ من سَمَكٍ ، وسارَ بينَ الأشجارِ يُنْصِتُ إلى أَصْوَاتِ الطيورِ . وحينَ مرَّ بِبَغَاءٍ صَاحَ بِهِ :

- طاب صباحك يا صاحبي .

ودخل عبدُ الله حديقةً للزهور ، سارَ في طرقاتها ،
وقعدَ على قدميه يتأملُ شُجيرةَ مزهرةً ، بديعةَ الألوان . أخذَ
يتحسَّسُ برفقٍ بالغِ ساقها وغُصُونها ، ويلمسُ أوراقها ،
ويتأملُ تويجاتَ زهورها . وراقه تكوينُ الزهرة ، فأخذَ يرسمُ
أوراقها وكأسها وغُصنها .

نبوءة عالم

وكان أحمدُ جالساً أمامَ سورِ بيته يعمل ، حين وفدَ عليه
« ابنُ الرومية » عالمُ النباتِ العطارِ بِإِسْبِيلِيَّة . فتركَ أحمدُ
عَمَله ، ورحبَ بضيفه ، وحكى له قلقه على ولده عبدِ الله ،
الدائمِ التجوُّلِ في الغابة ، وعلى شاطئِ النهر ، وفي
البساتين ، وحدّثه عن غرامِهِ بالزهورِ والأشجار ، وعن خوفِهِ
على عبدِ الله أن يصيرَ يوماً شقيّاً من الأشقياء ، أو يذهبَ
ضحيةً لهؤلاءِ الفُرسانِ الإسبانِ الذين يُجوبون الغابات ،
وحدّثه عن عُزوفِ ولده عن العملِ معَه في البَيْطَرَةِ . فضحك
ابنُ الرومية ، وقال :

- لو صحَّ حَدْسِي يا أبا عبدِ الله ، فابنُك لن يَكُونَ بَيْطاراً
مِثْلَكَ ، مادامَ يُحِبُّ البحرَ والنهرَ والغاباتَ والأشجارَ
والزهورَ . كنتُ مثله في صباي . وأظنُّهُ سيصيرُ مثلي عالماً



من علماء النبات والصيدلة . ولسوف يأتي يومٌ ألتقى به ،
وأُغريه بصُحبتى ، والتعلم على يدي .

فقال أحمدُ بسعادة وتمنُّ :

- ياليت .

ونهض ابنُ الرومية واقفا وقال :

- سأعودُ إلى إشبيلية ، فتعال يوماً لزيارتى ، وسوف
تجدُ عندي سوائل جديدةً لعلاج الحيوانات من النباتات
والمعادن .

وودّع أحمدُ صاحبه ، وانصرف ابنُ الرومية مبتعداً ،
وقد طرح وراء ظهره كيساً عامراً بما جمعه من نباتات طيبة فى
غابات ملقا ، وتوجه إلى جبل الفتح .

رسوم بالألوان

عند سفح جبل الفتح ، أخذ ابنُ الرومية يجمعُ
أحجاراً بعينها من الجبل ، ورأى غلاماً فى العاشرة ، جالساً
يرسمُ فى دفترٍ من الذاكرة . وقد أوقد ناراً بجانبه ، تفوحُ
منها ، مع الهواء ، رائحة سَمَكٍ يُشوى . واقترب ابنُ الرومية
من الغلام ، وقال وهو يجلس :

- إن صدقَ حدسى يا بُنى ، فأنت هو عبدُ الله بن أحمد
البيطار .

فقال عبدُ الله بدهشة :

- نعم . أنا هو . كيف عرفت ؟

فقال ابنُ الرومية ضاحكاً :

- ملامح وجهك يا بُنى وشت بشبهك بأبيك ،
وانشغالك بالرسم أكّد لى أنك هو عبدُ الله . فقد حدثنى أبوك
عن غرامك برسم الزهور . أرنى ما رسمته يا بُنى .

ورأى ابنُ الرومية دفتر عبد الله ، وقد امتلأ برسوم
زهور متعددة الألوان . فقال بدهشة :

- عجباً ، كيف عثرت على كل هذه الألوان ؟

فقال عبدُ الله برهوى :

- من أصباغٍ اكتشفتها بنفسى ، أخذتها من أوراق
النباتات والذهور ، ومن لحاء بعض الأشجار ، ووضعتها فى
بعض المحابر . وحين أعودُ إلى البيت ، سأثبتُ رسومي
بصمغٍ مخفف .

ثم قال عبدُ الله بفراسة :

- لقد عرفتُك يا سيدى ، فأنتَ عالمُ النباتِ الإشبيليِّ :
« أبو العباس أحمد بن محمد » . ابنُ الرومِيَّة .

فقال له ابن الرومِيَّة :

- صدقتَ يا عبدُ الله . وِيقِينَا أَنَّ أَبَاكَ حَدَّثَكَ عَنِ ،
مِثْلَمَا حَدَّثَنِي عَنْكَ .

وقال عبدُ الله برَجَاء :

- ليتك تقبلُنِي يا سيدى ، وتعلِّمُنِي ما تعرفُهُ من معارفِ
عَنْ عَالَمِ النباتِ .

فقال لَهُ ابنُ الدُّومِيَّة :

- مَعْمَلِي مَفْتُوحٌ لَكَ يَا بُنَى فِي إِشْبِيلِيَّة ، لَكُنْتِي
لَا أَنْصَحُكَ بِذَلِكَ الْآنَ . ابْقُ فِي مَلَقَا بَضْعَ سِنَوَات ، مَعَ
الغَابَاتِ والأَشْجَارِ والزَّهَوْر ، والنَّهْرِ والبحرِ ، وهذا الجبلُ
العَظِيم ، الَّذِي فَتَحَ مِنْهُ الأَنْدَلُسُ « طَارِقُ بْنُ زِيَاد » .

فقال عبد الله بدهشة :

- وَلِمَ لَا تَصْحَبُنِي مَعَكَ الْآنَ يَا سِيدِي ؟

فقال ابن الرومِيَّة :

- يَا عَبْدَ اللَّهِ . هَذِهِ الأَلْوَانُ فِي دَفْتَرِكَ ، اكْتَشَفْتُهَا أَنْتَ

بِنَفْسِكَ ، وَلَمْ يَعْرِفْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًا ، وَأَكْثَرُ
عِلْمًا وَخِبْرَةً . وَلَا أُرِيدُ لَكَ الْآنَ أَنْ تَفْقُدَ دَهْشَتَكَ الأُولَى حِيَالِ
الأَشْيَاء ، وَمُحَاوَلَتَكَ لِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهَا ، حَتَّى لَا تَتَحَجَّرَ
مَعَارِفُكَ عِنْدَ حَدُودِ مَا أَعْرِفُهُ أَوْ يَعْرِفُهُ غَيْرِي عَنْ عَالَمِ
النباتِ .

وكانتِ الأسماءُ قد نَضَجَتْ عَلَى النَّارِ ، فَأَخَذَ ابْنُ
الرُّومِيَّة يَأْكُلُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ يُحَدِّثُهُ عَنْ أَحْجَارٍ فِي جَبَلِ
الْفَتْحِ ، جَاءَ لِيَجْمَعَهَا كَيْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي تَحْضِيرِ عَقَاقِيرِ
لِعِلَاجِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ .

ليلة الرحيل إلى إشبيلية

ومرَّت السَّنَوَات . وَعَزَمَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى الرَّحِيلِ وَحْدَهُ
إِلَى إِشْبِيلِيَّة ، لِيَدْرُسَ عِلْمَ النباتِ عَلَى يَدِ ابْنِ الرُّومِيَّة .
وَحَدَّرَتْهُ أُمُّهُ نَعْمَى قَائِلَةً :

- احْتَرِسْ فِي طَرِيقِكَ يَا بُنَى مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ .

فقال لَهَا عَبْدُ اللَّهِ مَطْمَئِنَّا :

- لَا تَخَافِي عَلَيَّ . فَأَنَا فِي اللَّيْلِ سَانَأَمٌ بَيْنَ أَغْصَانِ
الأَشْجَارِ ، وَفِي النَّهَارِ لِنِ أَسِيرٍ فِي طَرِيقٍ يَأْلُفُهُ النَّاسُ . وَمَعِيَ

خِنْجَرَان ، وَيَدِي لَا تُخْطِئُ الرَّمْيَ بِالْخِنْجَرِ ، وَأَنَا أَجِيدُ
الْعَدُو ، وَفِي خِفَّةِ الْفَهْدِ .

كَانَ اللَّيْلُ قَمَرِيَّ الضَّوءِ . وَكَانَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ
جَالِسَةً لِلْعَشَاءِ فِي سَاحَةِ الْبَيْتِ ، فِي لَيْلَةٍ صَيْفٍ .

وَمَعَ بَزُوعُ الْفَجْرِ ، وَدَّعَ عَبْدُ اللَّهِ أَبُويهِ ، وَسَارَ غَرْبًا فِي
قَلْبِ الْغَابَةِ ، صَوْبَ إِشْبِيلِيَّةِ . وَمَشَى أَبُوهُ مَعَهُ بَعْضَ
الطَّرِيقِ ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ :

- لَا تَنْسَ يَا بُنَى أَنْ ابْنَ الرُّومِيَّةِ عَالِمٌ أَيْضًا بِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ، وَبِتَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ ، عِلْمُهُ بِالنَّبَاتِ . فَلَا تَنْسَ
حِظَّكَ مِنْهُمَا عَلَى يَدَيْهِ . وَاكْتُبْ إِلَيْنَا دَائِمًا يَا عَبْدُ اللَّهِ مَعَ بَرِيدِ
الْخَيْلِ . وَتَعَالَ لَزِيَارَتِنَا بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ .

معمل ومشتل

فِي الْعَامِ السَّادِسِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ ،
التَّاسِعِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ مَدِينَةَ
إِشْبِيلِيَّةِ ، وَكَانَتْ خَاضِعَةً مِثْلَ مَلَقَا لِحُكْمِ الْمُوَحِّدِينَ
الْمَغَارِبَةِ . وَتَوَجَّهَ مِنْ فُورِهِ إِلَى دُكَانِ ابْنِ الرُّومِيَّةِ الْعِطَّارِ ،
فَرَحَّبَ هَذَا بِهِ ، وَصَحَبَهُ إِلَى مَعْمَلِهِ الصَّغِيرِ خَلْفَ الدُّكَانِ .

رَأَى عَبْدُ اللَّهِ الْمَعْمَلَ الصَّغِيرَ وَقَدْ ازْدَحَمَ بِالْمَنَاضِدِ ،
وَالدُّوَارِقِ وَالْأَنَابِيبِ ، وَالزُّجَاجَاتِ الْمَلِيشَةِ بِسَوَائِلَ مُلَوَّنَةٍ ، وَقَدْ
أُلْصِقَتْ بِهَا أَوْرَاقٌ صَغِيرَةٌ ، كُتِبَتْ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ مُخْتَلِفَةٍ .
وَرَأَى جِهَازَ تَقْطِيرٍ ، وَجِهَازَ تَرْشِيحٍ ، وَجِهَازَ تَكْثِيفٍ .

وَصَحَبَهُ ابْنُ الرُّومِيَّةِ إِلَى مَشْتَلٍ صَغِيرٍ وَرَاءَ الْمَعْمَلِ ، لَهُ
سَقِيفَةٌ ظَلِيلَةٌ ، وَقَدْ غُرِسَتْ نَبَاتَاتٌ فِي أَرْضِهِ ، وَأُخْرَى بِأَوَانٍ
مِنَ الْخَزَفِ . وَكَانَتْ بِالْمَشْتَلِ حُجْرَةٌ صَغِيرَةٌ مُلْحَقَةٌ ، بِهَا
وَسَائِدُ شَرْقِيَّةٌ لِلجُلُوسِ بَسِطَتْ فَوْقَ حَصِيرٍ مُلَوَّنٍ ، وَمِنْضَدَةٌ
وَاطِئَةٌ لِلْكِتَابَةِ . وَهُنَا وَهَنَاكَ كَانَتْ كُتُبٌ وَدَفَاتِرٌ فِي عِلْمِ
النَّبَاتِ ، وَعِلْمِ الْحَدِيثِ ، وَعِلْمِ التَّفْسِيرِ ، وَجَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ
وَابْنُ الرُّومِيَّةِ يَسْأَلُهُ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِهِ ، وَأَحْوَالِ أَهْلِ مَلَقَا .

لماذا نكتب ونرسم ؟

وَدَخَلَ ابْنُ الرُّومِيَّةِ يَوْمًا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي
الْمَعْمَلِ ، وَفُوجِيَ بِهِ جَالِسًا يَرِيسُمُ مَا فِي الْمَعْمَلِ مِنَ
الْأَدْوَاتِ وَالْأَجْهَازَةِ . فَقَالَ لَهُ بَدَهْشَةً :

- مَاذَا تَفْعَلُ يَا عَبْدُ اللَّهِ ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

- كما ترى يا سيدى . أرسِم ما تراه عيناي فى
المعمل . حتى لا أنسى شيئاً . ففي يومٍ ما سيكون لى
معملى الخاص ، وأحتاج إلى هذه الرسوم . وقد ينسى
العقل . ولذلك أكتب ما أعلم ، وأرسِم ما أرى .

وجلس ابن الرومية ، وأطرق ، ثم قال :

- إنك تتصرف يا بنى ، وكأنك فى عجلة من أمرى ،
وكانك على وشك الهجرة عنا يوماً ما .

فقال عبد الله شاردأ :

- لا أدري يا سيدى . لكننى إذا ارتحلت يوماً ، فسوف
تكون رحلتى فى طلب المزيد من العلم .

وصحب ابن الرومية تلميذه إلى غرفته بالمشتل ،
وجلسا معاً كصديقين ، وقال ابن الرومية :

- تذكر يا عبد الله أن العلم مُشْتَبِكٌ بعضه مع بعض ،
ويؤدّى بعضه إلى بعض . الطب مثلاً : تشخيص وعلاج .
والعلاج : أعشاب وكيمياء . وفى العلاج عناصر من النبات
والحيوان ، والمعادن . ولذلك لا بُد للطبيب من معرفة علوم
النبات ، والحيوان ، والمعادن ، والكيمياء .



النبات يحسّ مثل الإنسان

وفوجئ ابن الرومية ذات يوم بتلميذه عبد الله واقفاً
فى المشتل ، فى ظلام الليل ، يقول له :

- إننى أفكر يا سيدى فى أنك لو نثرت الأنوار فى هذا
المشتل ، فى الليل ، بالقناديل والمشكاوات ، فسوف تظل
أكمامُ الزهور والأوراق المنطبقة مفتوحة للضوء ، ويواصل
النبات نموه وحياته وإزهاره وإثماره ، كما يفعل فى النهار .

فقال له ابن الرومية :

- إذن فأنت تحرم النبات من النوم والراحة يا عبد الله ،
وتحرّمه من التخلص من سموم الغذاء في نومه . ماذا لو
فعلت ذلك بإنسان يا عبد الله ؟

فقال عبد الله كمن يكشف أمراً غاب عنه :

- أعتقد أنه سيصبح عصيباً ، ويصاب بالجنون .

عندئذ قال ابن الرومية بعتاب :

- لم تريد إذن للنبات أن يُجنّ يا بُنى ؟ إنه يتألم مثلما
يتألم الحيوان والإنسان . ألا ترى نبات « الست
المستحية » ، ماذا يحدث له عندما تقترب منه ؟

فقال عبد الله بصوت هامس :

- تنطوي زهوره ، وتنطبق أوراقه . أجل . النبات
يحسّ مثلما يحسّ الإنسان والحيوان .

وقال ابن الرومية :

- لولا الضرورة يا بُنى ، وأن الأحياء يستمدّون حياتهم
من حياة الكائنات الأخرى ، لما كان لنا أن نقطع ورقة ، أو
نقطف زهرة ، أو نجنى ثمرة .

وصمت الاثنان . وجلسا وحيدَيْن في قلب الظلام .

تفوح حولهما روائح الزهور ، وكانا يُنصتان إلى أصوات
خفية ، لسريان الغذاء في عروق النبات .

العودة إلى ملقا

وصحب ابن الرومية معه عبد الله في زيارة إلى
غرناطة ، ليزورا معاً حديقة للنباتات النادرة في الدنيا ،
يملكها أمير غرناطة « محمد بن علي » . ولم يكن يسمح
بدخولها لأحد غير العلماء ، من الأطباء والصيادلة ودارسي
النباتات . وأمضى عبد الله أيامه في حديقة الأمير ، يرسم كل
النباتات التي تراها عيناه ، ويدون أوصافها ، ويسجل
ما يحدثه به ابن الرومية ، وبستاني الحديقة ، عن خصائص
هذه النباتات في العلاج . وكان عبد الله قد بلغ من العمر
خمساً وعشرين سنة ، حين أخذ يزرع بيده نباتات نادرة في
حديقة الأمير .

وذات يوم ، في ركن بالحديقة ، جاء إلى الأمير محمد
من يخبره بغزو الفرنجة لمدينة ملقا . تدفقوا عليها من سفنهم
بالبحر ، واقتحموا أسوارها ، وقلعتها ، وهب أهل ملقا
يحملون السيوف والخناجر ، يقاومون الغزاة .

وكان عبد الله قد توقف عن الكتابة والرسم ، وجلس



لم تعد الأندلس وطننا

وَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَأَخْتَهُ بِخَيْرِ حَالٍ ، وَعَلِمَ مِنْهُمْ
اسْتِشْهَادَ بَعْضِ أَقَارِبِهِ الْأَقْرَبِينَ ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ زَوْجُ خَالَتِهِ ،
وَابْنُهُ ، وَهُمْ يَقَاوِمُونَ الْغَزَاةَ . وَحَزِنَ عَبْدُ اللَّهِ لِمُضَرَعِ
الرِّجَالِ ، وَقَالَ أَبُوهُ أَحْمَدُ مُوَاسِيَا :

- مَاذَا تَنْتَظِرُ يَا بَنِيَّ مِنَ الْحَرْبِ سِوَى الْقَتْلِ لِمَنْ قُتِلَ فِي
الْقِتَالِ ، وَالْيَتَمِ لِمَنْ تَيِّمَ مِنَ الْأَطْفَالِ ؟ !

وَتَنَهَّدَ أَحْمَدُ وَقَالَ :

- لَكُنْ أَهْلٌ مَلَقًا سَرَعَانِ مَا عَادُوا إِلَى نَسْجِ الْحَرِيرِ ،
وَصُنْعِ مَتَجَاتِ الزَّعْفَرَانِ ، وَالتِّينِ ، وَالْعِنَبِ ، وَالرَّمَانِ ،

شَارِدًا ، وَتَقَدَّمَ مِنْهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ، وَقَالَ لَهُ :

- فِيمَ شُرُودُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟

عِنْدَئِذٍ وَجَفَّ قَلْبُ عَبْدِ اللَّهِ . وَنَظَرَ بِقَلْقٍ بِالْغَى إِلَى الْأَمِيرِ
وَأُسْتَاذِهِ ، وَقَالَ :

- ثَمَّةَ أَمْرٍ حَدَثَ لِمَلَقَا وَأَنْتُمَا تَخْفِيَانِي عَنْهُ ، وَتُمَهِّدَانِ لَهُ
بِالْحَدِيثِ عَنْ مَلَقَا .
فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ :

- صَدَقْتَ يَا بَنِي . فَقَدْ أَغَارَ الْفَرَنْجَةُ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى
مَلَقَا ، بِقِيَادَةِ الْفُونَسُو ، وَقَاوَمَهُمُ أَهْلُ مَلَقَا ، فَانْسَحَبَ الْغَزَاةُ
بُسْرَعَةٍ ، قَبْلَ أَنْ يَصْطَدِمُوا بِجُيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ .

حَدَّثَ ذَلِكَ قَبْلَ يَوْمَيْنِ . وَلَمْ أَعْرِفِ الْخَبَرَ إِلَّا الْيَوْمَ ،
مَعَ بَرِيدِ الْخَيْلِ .

وَأَطْرَقَ عَبْدُ اللَّهِ فِي حُزْنٍ . كَانَ يَعْرِفُ شَجَاعَةَ أَهْلِ
مَلَقَا فِي مُوَاجَهَةِ الْغَزَاةِ . وَدَبَّ فِي قَلْبِهِ شَعُورٌ بِالْخَوْفِ عَلَى
أَهْلِهِ ، فَقَالَ لِلْأَمِيرِ :

- إِنْ أَعَارَنِي الْأَمِيرُ جَوَادًا ، سَارَعْتُ بِهِ إِلَى مَلَقَا ، لِأَرَى
أَهْلِي ، وَعَسَى أَلَّا يَكُونَ أَحَدُهُمْ قَدْ أَصِيبَ بِسُوءٍ . وَمَنْحَ
الْأَمِيرُ جَوَادًا لِعَبْدِ اللَّهِ ، فَطَارَ بِهِ صَوْبَ مَلَقَا ، يُسَابِقُ سَاعَاتِ
النَّهَارِ .

واللوز ، والنارنج ، وعمل الصابون ، والفخار المذهب .
وعاد الأولاد إلى المدارس ، والصوفية إلى التكايا والوعاظ
إلى المساجد .

وذهب عبد الله مع أمه في الليل ، مواسياً ابنة خالته
خضراء ، التي فقدت أباه وأخاه في القتال ، وصارت
يتيماً من بعده .

وفكر عبد الله أن الأرض بالأندلس تهتر تحت أقدام
دولة الموحدين ، فقد تزايدت ضدهم ضربات الفرنجة التي
تكر وتفر ، وتفجرت في وجوههم خلافات القبائل والعصبيات
الجاهلية القديمة . وفتح عبد الله قلبه لأبيه وأمّه ، وراح
يحاول إقناعهما بالهجرة والرحيل معه إلى المغرب . فقال له
أبوه أحمد غاضباً :

- قل إنك تهوى الرحيل والأسفار . لماذا لم يفكر
أستاذك ابن الرومية في الهجرة من الأندلس مثلاً تفكر ؟ ماذا
يحدث للأندلس ، لو فكر كل أهلها بيتاً بعد بيت في الهجرة
والرحيل ؟

فقال عبد الله لأبيه ، وأمّه تنظر وتسمع :
- أبي . في يدك حرفة ، فأنت بيطار بارع ، ونعال
قدير . وستجد بحرفتك رزقك أينما حللت في دار من ديار

الإسلام . وأنا بحاجة إلى أن أعرف معارف لا يعرفها ابن
الرومية في علم النبات ، وهي عند عالم النبات المغربي :
« ابن الحجاج » . فكثيراً ما حدثني عنه شيخى
« ابن الرومية » .

فتنهّد أحمد وقال لعبد الله :

- أدركت أنك لأجل هذه الغاية تحملنا على الرحيل
يا عبد الله . الأمر لله ، فلا أطيع بقاء وأنت في ديار بعيدة
عنا ، وتعيش في وبعديك قلقاً علينا ، ولا أريد أن أحملك
على البقاء ، وأحرمك من طلب العلم .

وابتهج عبد الله والتفت إلى أمّه ، ليسمع رأيها ،
فقالت :

- لا أوافق على الرحيل إلا بشرط . وشرطي يا عبد
الله ، أن تتزوج قبل رحيلنا من ابنة خالتك : « خضراء » ،
ونصحبها هي وأمها معنا إلى ديار المغرب .

وداع . . إلى حين

تزوج عبد الله من « خضراء » . وعاد عبد الله إلى
إشبيلية في سفرة قصيرة لوداع أستاذه ابن الرومية . ولم يكذ

سأعلمك لغة اللاتين

ورحب أبو الحجاج بعبد الله ، وقرأ رسالة صديقه ابن الرومية بعينين مندأتين بدموع الحنين ، وراح يسأل عبد الله عن أحوال صديقه ابن الرومية ، وأحوال أهل الأندلس في ظل دولة الموحدين المغربية . وبات عبد الله ليلته عند أستاذه الجديد ، يحدثه فيما عرفه من المعارف عن علوم النبات ، إلى أن صاح ديك الفجر . وقال أبو الحجاج :

- يا بُنى . لن تجد عندي سوى القليل من المعارف عن النبات . وإن أردت المزيد يا عبد الله ، فعليك بالتجول بضع سنوات في بلاد اليونان والرومان ، لترى النباتات والأعشاب هناك بعينيك ، وتسجل أوصافها بنفسك ، ورُسومها بيدك ، وتلقى أحفاد عالمي النبات : « ديسقوريدس » و « جالينوس » . وتأخذ عنهم معارفهم عن النباتات كتابة ومُشافهة .

فقال عبد الله بلهفة :

- كم أود ذلك . لكنني ، لا أعرف يا شيخى لغة اللاتين .

فابتسم أبو الحجاج ، وقال :

عبد الله يُلقى عليه بالتحية ، حتى قال له شيخه :

- لهجتك يا عبد الله لهجة مُودّع . وعطرك يا عبد الله عطر عرس . اجلس يا عبد الله ، وافتح لى قلبك .

وجلس عبد الله وقال :

- سأسافر وحدي إلى المغرب ، وأدبر لأهلي داراً يُقيمون بها ، ولأبي دكانا يمارس عمله فيه ، حتى لا يمارس عمله في البيت مثلما كان يفعل في مَلَقا . وقد جئت مُودّعاً لك ، وعزمت على أن أقضى معك ليلة في المشتل ، في ضوء القمر .

في الصباح ، أعطى ابن الرومية لعبد الله رسالة توصية كتبها لصديقه أبي الحجاج ، وقال له :

- أبو الحجاج عالم يا بُنى . وتلاميذته أصدقاؤه ، وهو خبير بالمغرب وأهله ، وسيعاونك لتسكن داراً مع أهيك ، وتحصل على دكان لأبيك .

ومع الضحى . عاد عبد الله من إشبيلية إلى مَلَقا ، وأقام مع أهله وعروسه أياماً ، وصحبته الأهل والأقارب إلى ميناء مَلَقا مُودّعين إلى حين . وحملته سفينة شراعية صغيرة صوب الجنوب إلى مدينة سبتة . وامتلاً الشراع بريح شمالية .

- أنا أعرفها يا ولدي مثل أهلها . وسأعلمها لك ، مع ما أعرفه من المعارف عن النبات . ولسوف تُقيم معنا في سبته بضعة سنين ، إلى أن تُجيد لغة اللاتين .

واستأجر أبو الحجاج لآل عبد الله داراً مشمسة ، طيبة الهواء ، واسعة الساحة ، تحدها أربع طرقات ، واستأجر لأبيه دكاناً بمدخل سوق سبته ، يغدو إليه الفرسان ويروحون . وبعث عبد الله ، مع بريد البحر ، رسالة إلى أبيه في ملقا ، للقدوم إلى سبته .

العلم لا وطن له

أقام عبد الله مع أهله وزوجه في سبته . كانت سبته مدينةً تُشبه ملقا ، ولها ميناء على البحر مثل ميناء ملقا . فلم يشعر أبوه أحمد ، ولا أمه ولا أخته ، ولا عروسه بغربة المكان . وراجت حرفة أحمد البيطار في المدينة ، فأتسع رزقه ، وكثر قاصدوه ، وتفرغ عبد الله لملازمة أستاذه أبي الحجاج نصف النهار ، ونصف الليل ، يتعلم على يديه معارف النبات ، ولغة اللاتين . وبدت الحياة طيبة لعبد الله وأهله بضعة سنين .

وعزم عبد الله على الرحيل إلى بلاد الإغريق

(اليونان) ، والرومان (إيطاليا الآن) ، فلم يعد في المغرب ثمة مزيد من العلم يبقى لأجله ، ولا جديد من نبات المغرب لا يعرفه ، وقد أثقن اللغة اللاتينية حديثاً وكتابة . وخرج الأهل وأبو الحجاج يودعون عبد الله في ميناء سبته . وقال له أبو الحجاج :

- أعلم وأنا أودعك يا عبد الله ، أنك لن تعود إلى المغرب ، وقد أحبيناك ، عقلاً وخلقا .

فقال له عبد الله :

- الله وحده يعلم يا شيخى متى يلتقى الأحياء ، ومتى يفترقون .

وتضاحك أبو الحجاج ، وهو ينظر إلى وجه عبد الله ، وقال :

- من حسن حظك يا عبد الله أن لك وجهاً أشقر ، وعينين ملونتين ، سيحملك هذا الوجه في بلاد اليونان والرومان من أذى كثير . وإنى أشير عليك يا عبد الله ، أن تختار لنفسك اسماً من اسمائهم تسمى به ، فلا يعرف العامة من أنت ، ويظنونك واحداً منهم . وإن لم تفضحك لهجتك العربية فلن يصيبك منهم سوء . ولا ضير عليك يا عبد الله من علماء اليونان والرومان ، إن عرفوا اسمك ودينك ، ماداموا

يعرفون أن العلم هو غايتك . فالعلم لا وطن له يا بني .
ولا تجاهر الأقوام هناك بدينك ، واسمك ، ولغتك . فهم
جميعاً في حربٍ معنا في الشام ، وفي الأندلس ، وفي جزر
البحر الذي نشرف عليه من سبتة .

وقال عبد الله لأمه نُعمى وهو يودّع أهله :

- الآن أودّعكم وأنا مطمئن القلب عليكم في سبتة ،
وقد عوضنا الله بها عن ملقا .

ف قالت له نُعمى وهي تنهد :

- ليس هواء سبتة مثل ملقا ، ولا البحر ، ولا
الأشجار ، ولا الخضرة ، ولا الزهور ، ولا الفاكهة ، أعاننا
الله على الحنين إلى ملقا .

فضحك عبد الله وقال :

- حين تشاقين إلى ملقا يا أمي انظري إلى خضراء ،
ونادي عليها باسمها . ففي وجهها سحر ملقا ، وفي اسمها
خضرة الأندلس .

وعاتق عبد الله أهله وأستاذة مؤدعا ، وعيون الجميع
منداة بالدموع ، وعبر الشاطئ إلى سفينة كبيرة ، ستحملة
على صفحة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط الآن) ،

وترسوه يوماً في ميناء « سالرنو » بصقلية ، ثم تشق طريقها
في البحر إلى البندقية (فينيسيا الآن) ، ليهبط عبد الله في
ديار غريبة لا عهد له بها ، وربما لا تتاح له منها أن يرسل
رسالة إلى أحد بالمغرب أو بالأندلس . وكانت خضراء تنتظر
وليدها الثاني ، الذي لن يشهد عبد الله مولده .

رسالة من دمشق

مضت سبع سنوات على عبد الله في ديار اليونان ،
والرومان ، لم يسمع فيها أبوالحجاج ، ولا أحد من الأهل
خبراً عن عبد الله . حتى خشي الكل أن يكون قد صار ذكرى
بعيدة ، وحلماً عابراً ، ثم جاءت رسالة من عبد الله إلى أبي
الحجاج ، حملها بريد البحر من الشام إلى تونس . وفض
أبوالحجاج الرسالة ، وهو يشم فيها عطر صديق ، وأخذ
يقرأ :

« انتهت سنوات سياحتي في بلاد اليونان والرومان ،
وقد احتفى بي يا شيخى صديقك العالم « ديسقوريدس
الصغير » كما تسميه ، وقبل رسالتك ، وفضها ، وقرأ ما بها ،
ووضعها على رأسه ، ولم يفارقني طول هذه السنوات فعلمته
ما أعرف من معارف عن النبات ، وعلمني ما يعرفه ، وازدنا

وهو يتمم : « أحسنت اختيار مصر خاتمة للمطاف
يا عبد الله » . وتوجه من فوره إلى دار أحمد البيطار في
سبته ، حاملاً معه رسالة عبد الله .

لقاء ملكي

نزل عبد الله إلى أرض مصر ، وله من العمر اثنتان
وثلاثون سنة ، حملته سفينة يونانية إلى الإسكندرية ، ولم
يلبث أن ارتحل منها إلى القاهرة الأيوبية . واستأجر داراً
فسيحةً بجزيرة الروضة ، في قلب النيل ، جنوبي المدينة .
وكان قد ادخر مالاً ، بممارسته لمهنة الصيدلة ، والبيطرة
أيضاً ، وبيعه لما يجمعه من نباتات طبية للعطارين ، في
سنوات اغترابه ببلاد اليونان ، والرومان ، والبيزنطيين .

ولم يكذ عبد الله يستقر ليلة في بيته الجديد ، حتى
فوجيء بجندي أيوبي يدعوه إلى لقاء الملك الكامل في قصره
بحي الأزهر ، فدهش عبد الله ، وأشفق على نفسه من لقاء
الملك ، واستمهل الجندي برهة يرتدى فيها ثياباً تليق باللقاء
الملكي . ثم ركب معه فرساً قدّمه إليه ، وساراً إلى حي
الأزهر .

استقبل الملك الكامل عبد الله ، وفاجأه بأنه يعرف عنه



معا معرفةً بالتجول في أنحاء البلاد اليونانية والرومانية ، وزاد
فصحبني إلى بلاد البيزنطيين (آسيا الصغرى الآن) ، فسحنا
بين نباتاتها عاماً كاملاً ، ثم ودّعني عند حدود الشام ،
فانحدرت جنوباً إلى دمشق الفيحاء . وهانذا أكتب إليك ،
وقد عزمت على الرحيل إلى مصر ، والاستقرار بها ما بقي
لي من العمر ، وعلى التردد على الشام طلباً للمزيد من
المعرفة عن نباتات الشام ، خاصة في غوطة (بستان) دمشق
التي تحيط بها كالسوار . . . »

وطوى أبو الحجاج رسالة عبد الله ، وقد استراح قلبه ،

أنه قدِمَ إلى الإسكندرية قبل شهر ، وعلى سفينة يونانية ، وأنه على شيء من الثراء ، فأدرك عبدُ الله أن للملك عُيُونَهُ التي لا يخفى عنها شيء من أمور الغرباء والوافدين ، خاصة وأن مِصْرَ في حروبٍ مع الصليبيين . وفتح عبدُ الله قلبه للملك الكامل ، فذكر له كل شيء عن حياته ، ورحلته من مَلَقَا ، إلى سَبْتَةِ ، إلى بلاد اليونان والرومان والبيزنطيين ، والشام ، وأن ثرائه جنَّاه من عمله في الصيدلة والبَيطرة ، وبيع النباتات الطبية للعطارين . فقال له الملك الكامل :

- صيدلي أنت إذن ، وعالم نبات .

فقال له عبدُ الله :

- نعم . واسمى هو « عبدُ الله بنُ أحمد بنُ البَيطار » ، وكُنيتي هي : « أبو محمد » ولقبى هو : « ضياء الدين » ، لقبني به أستاذي الأول : أبو العباس الأمويّ الإشبيلي .

فقال الملك الكامل بأنبهار :

- ابنُ الرومية ؟ !

فقال له عبدُ الله :

- نعم . أتعرفه يا مولاي ؟

فقال الملك الكامل :

- ومن لا يعرف في زماننا العالم ابنُ الرومية يا أبا محمد . بيني وبينه رسائل في مسائل في الحديث والتفسير .

واستأذن عبدُ الله الملك الكامل في أن يُرسل في طلب أهله من سَبْتَةِ ، فأذن له . وعاد عبدُ الله يقول :

- وإن أذن لي مولاي ، ألحقني بزُمرَةِ الصيادلة العشابين بالبيمارستان (المستشفى) الناصري .

فقال له الملك الكامل :

- اذهب غدا ، وسلم نفسك لقيّم (المدير) البيمارستان الناصري ، وسيخبرني بمدى علمك وخبرتك .

في الليلة التالية جلس عبدُ الله في داره بجزيرة الروضة ، المطلة على نهر النيل ، والأرض الخضراء الفسيحة ، والأهرامات غربي النهر ، يكتب رسالة إلى أهله بسَبْتَةِ ، يستقدمهم إلى القاهرة ، على أول سفينة كبيرة ، تصمُدُ لأمواج البحر ، فقد استقر به المقام في القاهرة ، وصار واحداً من الصيادلة العشابين في البيمارستان الناصري .

وفرَّح عبدُ الله ، وفرَّح الأهل ، باللقاء ، وجلس عبدُ الله في ضوء مشكاة ، وحوله الأهل ينظرون إليه بشوق ،

فى ليلة شتاء ، وهو يقرأ رسالتين حملهما بريد البحر من شيخه : ابن الرومية ، وأبو الحجاج .

العلماء ملوك لكل العصور

ولم تمض شهور ، حتى دعا الملك الكامل عبد الله إليه ، ودعاه للجلوس معه على مقاعد الملك ، فتخرج عبد الله . فقال له الملك الكامل :

- اجلس يا عبد الله ولا تتخرج . فنحن نعرف أقدار العلماء .
العلماء ملوك لكل العصور يا عبد الله .

وجلس عبد الله مع الملك الكامل ، فعاد هذا يقول له :

- أخبرنى أئمة قيم البيمارستان الناصرى ، أن مصر لم تعرف قبلك عالما ، مثلك ، بالصيدلة والأعشاب وتركيب العلاجات . ولذلك يا عبد الله ستكون من الغد رئيساً للعشابين فى مصر ، وقيماً على خزانة العقاقير بالبيمارستان .
وشكر عبد الله الملك الكامل ، وصمت الملك لحظة ، ثم قال :

- أشر على يا عبد الله فى أمر استيلاء « جان دى

بريين « الطرنسى على مدينة « دمياط » . فقد استمعت لرأى قادة الحرب ، ووجب على أن استمع لرأى العلماء . كيف يمكن لنا أن نسترد « دمياط » .

كان عبد الله يعلم ، مدى حزن الناس على ضياع دمياط ، ويعلم أن الملك الكامل قد بنى الاستحكامات جنوبى دمياط إلى المنصورة ، لكن النهر لا يزال يتدفق ، ويمكن أن تجتازه سفن الصليبيين إلى الجنوب . وقال عبد الله :

- يا مولاي . أغرق سفنا فى النهر جنوبى دمياط .
فمنع بذلك سفن العدو من التقدم ، ويظل النهر يجرى فلا يغرق ما وراءه من أرض مصر .

من حرب إلى حرب

رحل الغزاة الفرنسيون بالصلح عن دمياط ، بعد أن قتلوا وأحرقوا ونهبوا ثلاث سنوات . وتفرغ الملك الكامل لإعادة بناء مصر ، بتحسين الرى ، وإقامة معاهد جديدة للعلم ، وترويج الحرف ، وتكديس السلاح ، تحسباً من عودة الغزاة الصليبيين قادمين من أوروبا .

وجاءت الأخبار يحملها بريد الحمام ، بغزو الهنغاريين

(البغايرين الآن) للشام ، وغايتهم دمشق الفيحاء . وشعر
عبد الله بأن قلبه يتمزق بين المحن التي تنزل على رؤوس
الناس في ديار الإسلام ، في الأندلس ، ومصر ، والشام .
ورحل عبد الله مع الملك الكامل وجيشه لردّ العدو
عن دمشق ، فسوف يكون الجرحى بحاجة إلى خبرته
بالصيدلة وبالعلاج .

ونجح الملك الكامل في كسر شوكة الحملة الصليبية
الهنغارية ، فأخذ عبد الله يستفيد من أيامه بدمشق في جمع
الأعشاب والنباتات من الشام .

الكتاب الأول

وعاد عبد الله مع الملك الكامل إلى القاهرة ، وكان قد
بلغ من العمر أربعين سنة . ودعا إليه تلميذه « إبراهيم ابن
موسى » ، وأخذ يملأ عليه كتاباً بعنوان : « شرح كتاب
ديسقوريدس في الأعشاب » . فقال له إبراهيم :

- عفوا يا شيخى . إنك تعرف أكثر مما عرفه
ديسقوريدس وجالينوس عن النبات .

فقال له عبد الله :

٤٠

- يا إبراهيم . علينا أن نبدأ بالينابيع ، ثم نرتقى منها
إلى ما نعرفه نحن . لقد كتب العرب وغير العرب في
الأعشاب مائة وخمسين كتاباً . لكننا لن نتوقف منها إلا عند
كتاب ديسقوريدس ، لأنه ، فيما أعلم ، النبع الأول لكل
ما كتبه العرب ، وقد أساء الكثيرون شرحه ، وفهمه ، وترجمته
ما فيه من مصطلحات وأسماء .

اقتسام القدس

ومرة أخرى عاد الصليبيون من الألمان والصقليين بقيادة
« فردريك الثانى » يغزون أرض فلسطين ، وكانت غايتهم هي
استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان « صلاح
الدين الأيوبي » قد استعادته من الصليبيين قبل أربعين سنة .

وقال « عبد الله » للملك الكامل بدهشة ، وهما
جالسان معا في قاعة العرش :

- ماذا يريد الفرنجة ، وطريق الحج للقدس مفتوح لهم
منذ أربعين سنة ؟

فقال الملك الكامل :

- إنهم يرغبون إعادة مملكة أورشليم في القدس مرة

أخرى . ولقد أُمِّرت بإعداد الجيش للحرب . وسوف تكون
معى يا عبد الله ، فى زمرة الأطباء فالمرضى والجرحى
سيكونون بحاجة إليكم .

ومرة أخرى عاد عبد الله إلى الرحيل مع الملك الكامل
إلى فلسطين ، وحين عاد كان وجهه حزينا ، وبدأ لأبيه أحمد
كسیر الخاطر . جلس عبد الله إلى أبيه أحمد ، أمام دكانه
للبيطرة ، بحى الروضة ، حيث يروح الفرسان إلى ثكناتهم
ويغذون . كان أحمد البيطار قد بلغ من العمر ستين سنة .
وكان يبدو مرهقا ، وهو يطرق بمطربة حدوة لحصان على
سندان . ونظر عبد الله بحب وإشفاق إلى أبيه وقال :

- آن لك أن تستريح يا أبى .

فقال له أحمد :

- لا تُحدثنى عن الراحة ، وخبرنى . ماذا فعلتم لبيت

المقدس ؟

فقال عبد الله باضطراب :

- لسنا فى زمان صلاح الدين يا أبى ، فأمة الإسلام

شيع وفرق ودول . ولم يجد الملك الكامل مفرا من عقد
الصلح بينه وبين الملك « فردريك الثانى » ، على . .

اقتسام القدس !!

فصاح أحمد البيطار بلوعة :

- اقتسام القدس ؟ !

فقال عبد الله بحزن :

- نعم . للفرنجة نصف ما بالقدس من أماكن المسيحية
المقدسة ، ولنا النصف الآخر .

وعاد عبد الله يقول ، وهو يرى أباه مصفرا الوجه ، فى
ساعة غروب :

- على أى حال يا أبى ، لم ينجح الصليبيون فى إقامة
مملكة أورشليم .

فصاح أحمد فى وجهه قائلا :

- أقاموها على النصف يا عبد الله . لا تخذع نفسك
أنت والملك الكامل يا بنى . فلن ينخدع الناس بأى تبرير .

وعاد الاثنان إلى دراهما بالروضة ، وأحمد يردد طول
الطريق :

- سامحك الله أيها الملك !! سامحك الله أيها

الملك !!

يوما ما ستعود القدس

فى الليل ، جلس أحمد تحت شجرة ، فى حديقة البيت . وسمعه عبد الله يقول ، متغنيا بهمس :

- بيتنا على النهر . وعلى النهر سأجلس ، وأصيد السمك ، مثلما كنا فى مَلَقَا . عندما كنت صغيرا ، كنت أصيد السمك . وغداً سأصيد السمك مثلما كنت صغيرا .

والتفت أحمد إلى عبد الله ، وقال :

- ستأخ لي الفرصة ، وأنا أصيد السمك ، لأفكر فى مصائر المدائن والدول .

فقال له عبد الله مواسياً ، بحزن :

- الأيام دُول يا أبى . ستعود القدس يوماً ما ، يوماً ما ستعود القدس .

آه . . . مَلَقَا

فى اليوم التالى ، جلس أحمد البيطار على شاطئ النهر بالروضة . يصيد السمك بسنارة ، وبدا شاحب الوجه ، يتفصد العرق غزيراً منه ، وشعر بالتعب ، فأخذ يتراجع فى



جَلَسَتْهُ بَصُوعُوبَةٌ . وبدا يَفْتَحُ فَمَهُ ويشهق ويزفر لاهثاً ، وعيناهُ
جاحِظَتان ، وهو يَتَمَتُّمٌ بِخُفُوتٍ :

- آه . . . مَلَقَا . . . مَلَقَا . . .

وانزَلَتْ من يَدِهِ غَابَةُ الصَّيْدِ في النهر ، وأخذتْ
تبتعد ، بينما استَلْقَى هو بطولِهِ على الشاطئ ، وقد كَفَّ
تماماً عن الحركة . وعندما جاءَ عبدُ الله ليعودَ به عندَ الظهر ،
وجدَهُ قد أسْلَمَ الرُّوحَ لبارئِها .

لم يعد لنا سوى العلم

جاءتِ الأخبارُ إلى مصر ، بسقوط قُرطبة في يدِ
الفرنجة ، وسقوط « ميورقة » بعد زوالِ دُولَةِ الموحِّدين .
واستولى بنو الأحمر على مَدِينَةِ مَلَقَا ، ومن جديد عادت دُولُ
الطوائفِ القبلية والطائفية ، تحكم ما بقي من بلادِ الأندلس
الذي لم تنله جيوشُ الفِرَنْجَةِ بعد . وعاشَ عبدُ الله حُزْنَيْنِ :
حزنه على أبيه ، وحزنه على ما أصابَ الأندلس ، والقُدُس .
وعادَ عبدُ الله للارتحالِ إلى دِمَشق . وقال لزوجته
خُضراء : -

لم يعد لنا سوى العلم ، نتعزى به ونتصبر . وقد كبر

الأولاد يا خُضراء وابنتنا « رندة » صارت عروساً ، والأعشابُ
يا أمَّ رندة تدعُوني إليها في غُوطَةِ دِمَشق ، فقد غرستها هناك
بيدي .

ابن الرومية في مصر

ووفد ابنُ الرومية إلى مصر ، وهو في طريقِ عودته من
الحج ، ليلقى تلميذه عبدَ الله ، فوجده غائباً في دِمَشق .
وترك ابنُ الرومية لعبدِ الله في بيته ، كتابين من تأليفِهِ هُما :
« الأدوية المفردة » ، و « الرحلة النباتية » ، وواسى نُعْمَى في
زوجها ، وداعبَ أبناءَ عبدِ الله وبناته . ثم توجه في يومه
لزيارة الملك الكامل .

ورحب الملك الكاملُ بعالمِ الأندلس ابنِ الرومية ،
ودعاه للبقاء معه في ديارِ مصر ، فقال له ابنُ الرومية :
- لا حياة لي بعيداً عن إشبيلية أيها الملك ، وسأعودُ
إليها من غدى . وقد جئت زائراً لك ، ولأقدم لك كتابين
لي ، أحدهما : « نظم الدراري في الحديث » ، والآخر :
عشرة أجزاء في « تفسير القرآن الكريم » .

وقضى ابنُ الرومية يومه مع الملك الكامل ، يحدثه عن

الأندلس الخُصراء ، ما بَقِيَ منها في أيدي العرب ،
وما ضاع ، ولم ضاع !!

من ملك . . إلى ملك

كان عبدُ الله قد بلغَ من العمر اثنتين وخمسين سنة ،
وكان لا يزالُ بدمشق حين جاءته الأخبارُ بوفاةِ الملكِ
الكامِل ، فسعى عبدُ الله إلى ابنِ أخيه الملكِ الصالح « نجم
الدين أيوب » ، في قصره بدمشق ، معزياً . وقال الملك
الصالح لعبدِ الله :

- آل الأمرُ في مصرَ إلى ابنِ عمِّنا الملكِ العادلِ ابنِ
الملكِ الكاملِ يا أبا مُحَمَّد . وإن شئتَ لحقتَ به ، وإن شئتَ
بقيتَ معي :

وآثرَ عبدُ الله البقاءَ إلى حينَ مع الملكِ الصالح .

وعادَ عبدُ الله مع الملكِ الصالح إلى مصر ، بعد عَزَلِ
الملكِ العادلِ لسوءِ سلوكه وسيرته في تصريفِ أمورِ المُلْك ،
فوجدَ أن أمّه قد لحقتَ بأبيه ، ورقدت معه في قبرٍ واحد .
وأن أولاده قد تزوجوا وصارَ لكلِّ منهم بيت .

عودة القدس

نجحَ الملكُ الصالحُ أيوب في توحيدِ أمورِ الشامِ
ومصر تحت راية ملكه وصفى كلَّ الخلافات بين أمراء البيتِ
الأيوبى في الشام ، وفي مصر . وكان أجلُّ الهدنة بين عمّه
الملكِ الكامل ، وفرديك الثاني ، قد انتهى بمضى عشرِ
سنوات . وطمع الصليبيون في نصفِ القدس الذى بقى في
يدِ المسلمين ، فأغارَ الإنجليزُ بقيادة « ريتشارد » صاحبِ
« كورنويل » على القدس ، فنهض إليه الملكُ الصالح
الأيوبى بجيشٍ مُوَحَّد من أمراء مصر والشام وردَّ غارته ،
وحرَّرَ القدسَ كلّها مرةً أخرى .

وخلا قلبُ عبدُ الله للعلم ، فجلسَ إلى تلميذه
« إبراهيم بن موسى » ، وبينهما ورقٌ وأقلامٌ ومِحبرة ، على
حصيرٍ تحت شجرةٍ بحديقةِ بيته ، وقال له :

- سأُملِي عليك يا إبراهيم كتاباً أظنه آخر ما سأُمليه من
كُتب ، بعد كُتبي الثلاثة الأخرى السابقة : « المُغْنى في
الطب » ، و « الأفعال الغريبة والخَوَاص العَجِيبَة » ، و « شرح
ديسقوريدس » . فضع على ورقةٍ مُفردةٍ يا إبراهيم هذا
العنوان : « الجامعُ لمفردات الأدوية والأغذية » .

تاج الكتب

بلغ عبد الله من العمر ستين سنة ، وذهب عبد الله إلى صديقه الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ، وجلس إليه ، وقدم له كتابه الجديد : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » . فابتهج به الملك ، وأخذ يقلب سعيداً في صفحاته وهو يقول :

- كم صنفاً من الأدوية في كتابك يا أبا محمد ؟
فقال عبد الله :

- ألف وأربعمائة دواء يا مولاي ، مرتبة على حروف المعجم ، بينهما ثلاثمائة صنف من الدواء ، لم يتناولها عالم قبلي . وقد ذكرت اسم كل دواء منها بالعربية ، والإغريقية ، والفارسية ، والإسبانية الدارجة . وقد ذكرت مع كل دواء يا مولاي رأي فيه ، وآراء جميع من لهم رأي فيه ، وعددهم مائة وعشرون عالماً عربياً ، وعشرون عالماً من الفرنجة .

فقال الملك الصالح بإعجاب :

- هذه هي والله أمانة العلماء . فالله قد أمرنا برّد الأمانات إلى أهلها . ومن ردّ الأمانة نسبة كل رأي إلى صاحبه .



فكتب إبراهيم عنوان الكتاب الجديد ، وقال :

- إن أذنت لي يا سيدي حدثني عن كتابك قبل أن تشرع في إملائه ، لأعرف كيف سيكون نسقي في كتابته .
فقال عبد الله :

- إنه كتاب يا إبراهيم ، أضع فيه خلاصة ما عرفه الأقدمون من قبلي ، والمعاصرون لي ، وفي طليعتهم : الزهراوي ، والغافقي ، وديسقوريدس ، وجالينوس ، والإدريسي ، وأبقراط ، وما خبرته بنفسي عن كل ما قالوه . وسنجرى ترتيب هذا الكتاب أبجدياً على حروف المعجم ، وفق أسماء النباتات والمعادن والحيوانات ، وأرجو من الله يجعله تاج كتبي .

ثم قال الملك الصالح لعبد الله :

- ماذا يقول كتابك لنا عن « اللبان » يا أبا محمد ؟

فقال عبد الله وكأنه يحفظ كتابه عن ظهر قلب :

- اللبان يا مولاي هو « الكندر » بالفارسية ، وأجوده في

ديار شحر عُمان . ولديسقوريدس ، وجالينوس ، وابن

سَمْحون ، والدينوري ، آراء فيه . وأجود ما يكون منه

يا مولاي هو « اللبان الذكر » ، فهو يجلو ظلمة البصر ، ويلزق

الجراحات الطرية ، ويقطع نزف الدم ، ويمنع القروح

الخبثية إذا خلط بلبن ، ويوقف الألم إذا خلط بزيت أو خل ،

ويشفي من حروق النار إذا خلط بشحم ، و . .

فقاطعه الملك الصالح ضاحكاً ، وقال :

- حسبك يا أبا محمد . الآن نأذن لك في السفر أنت

وأهلك إلى دمشق ، فأنت لها محبوب .

فقال عبد الله بامتنان :

- حبي لغوطتها وأعشابها يا مولاي . وما حجزني عن

الرحيل إليها هذه السنوات ، سوى حرصي على إنجاز هذا

الكتاب ، فلا يعلم إلا الله وحده ، متى يكون الأجل .



رجل أحمق

صحبَ عبد الله زوجته خُضراءَ معه إلى دمشق ، تاركاً بيته بجزيرة الروضة إلى حين عودته ، واستأجر بيتاً متواضعاً في غوطة دمشق ، سكنه هو وخُضراء . ولم يكذُ يمرُّ عليهما في الغوطة عامٌ واحد ، وبينما كان عبد الله وخُضراء يحزمان بعض النباتات الطبية ، أمام البيت الصغير ، إذ جاء رجلٌ أحمق من أهل الغوطة ، وفاجأ عبد الله بقوله دون تمهيد لما يقوله :

- سقطت دمياط في يد الملك الفرنسي لويس التاسع ! !

فبهتَ عبد الله للخبر ، وهمسَ مُروعاً :

- ماذا ؟ !

وأضاف الرجل الأحمق يقولُ بسرعة كابوسية :

- نعم . سقطت ، ولويس يتقدم الآن بجيوشه نحو « المنصورة » . ويقولون إن عسكره قد أحاط بسرادق الملك الصالح عند « البحر الصغير » بالمنصورة . . . و . . .

وخفق قلبُ عبد الله خفقةً أخيرة ، وسقط بوجهه فوق نباتاته ، وانحنت فوقه خُضراء تناديه ناشجة .

ولم يعيش عبد الله ليعرف أن الملك الصالح قد نجا بفضل فرسانه من حصار الفرنجة ، وأنه قد مات على فراشه ، وأن زوجته شجرة الدر قد نهضت بالأمر من بعده ، فتكتمت خبر موته ، وألحقت جيوش المسلمين بالجيش الصليبي الفرنسي هزيمة ساحقة . وأسرت الملك لويس التاسع ، وسجنته في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة .

* * *

في سنة خمسمائة وتسع وثمانين هجرية ، ألف ومائة وتسع وتسعين ميلادية ، وُلدَ عالم النبات الأندلسي المألقي : « عبد الله بن أحمد البيطار » بمدينة « ملقا » بالأندلس .

وفي سنة ستمائة وست وأربعين هجرية ، ألف ومائتين وثمان وأربعين ميلادية ، وكانت وفاته بمدينة دمشق ، وله من العمر ستون سنة هجرية ، تسع وخمسون سنة ميلادية .

وبقيت ذكرى العالم ابن البيطار حية من بعده ، في تاريخ علم النبات ، وعلم الطب وعلم الصيدلة ، في ديار الإسلام ، وفي أوربا ، إلى مطالع عصر النهضة الأوربية ، وترجم المستشرق النمساوي « سونتها يمر » كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » إلى اللغة اللاتينية بعنوان

« مفرداتُ ابنِ البَيَّطار » فى العقدِ السابعِ من القرنِ التاسعِ
عشرِ الميلادى . وترجمه المستشرق الفرنسى « لكليرك » إلى
الفرنسية فى العقدِ الثامنِ من نفسِ القرنِ . ولا تزالُ شعوبُ
الأندلس « إسبانيا الآن » ، والمغرب ، ومصر ، والشام ،
واليونان ، وإيطاليا ، تفخرُ بأن « ابنِ البَيَّطار » ، عالمَ
النبات ، عاشَ فى ديارِها عدداً من السنين .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٦ / ٣٦٦٤

مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر